تجربة مؤسسات التعليم الجزائرية
لجمعية العلماء المسلمين وعلاقتها بنظيرتها في المشرق العربي أيام الاحتلال الفرنسي

✍د/ محمد برو
أ/أعمر ناصر باي
قسم علم النفس وعلوم التربية
الأرطفونيا جامعة المسلة

أولا- الإشكالية:

تقوم المؤسسات التعليمية بدور أساسي في إعادة التشكيل الثقافي والوعي الحضاري للأمة، ولهذا ليس غريبا أن تولي الدول الغازية الاستعمارية عناية كبيرة لهذا القطاع الحيوي، وهذا ما أدركه الاستعمار الفرنسي. فخطورة التعليم وأهميته تكمن في أنه يوصل إلى الغايات المطلوبة فيتخذ وسيلة وسبيلا. غير أن الله يهيئ رجالا ينتبهون إلى هذا الدور الاستراتيجي للتربية والتعليم فيعملون على توظيف نفس الوسيلة، وقد كان ابن باديس، ومن معه من الرجال الذي أسسوا جمعية العلماء المسلمين، بالمرصاد للمستعمر والمدارس التي أقامها في بعض المناطق بالجزائر إبان الفترة الاستعمارية، للنهوض بالدور المطلوب من كل المواطنين في سبيل إعادة الوعي الحضاري الذي كاد أن يشوه. غير أن بعض الباحثين كثيرا ما يتعرضون لتجربة الجمعية من حيث أنها تجربة منفصلة عن التجارب المماثلة في العالم الإسلامي وذلك لتركيزها على البعد الوطني، مما يحرمها من هذا البعد الشمولي، الأمر الذي يدفع إلى طرح التساؤلات التالية:

1- هل تجربة جمعية العلماء المسلمين التعليمية تجربة ذاتية هي وليدة عوامل محلية؟

2- هل استفاد نظامها التعليمي من أنظمة تعليمية كانت قائمة في العالمين الإسلامي والعربي؟

3- هل كان توجهها التربوي توجها وطنيا ضيقا أم كان توجها قوميا شاملا؟

ثانيا-أسباب اختيار موضوع البحث:

1- الشعور بالقطيعة بين جيل ما بعد الاستقلال وجيل ما قبل الاستقلال.

2- الحاجة إلى إعادة بعث الأبعاد المختلفة لتجربة جمعية العلماء باعتبارها حصنا منيعا يقي الشخصية الوطنية من الانحلال الذي يهددها في ظل ثقافة العولمة.

3- تعتبر هذه التجربة تجربة أولى ورائدة في تاريخ الجزائر المعاصرة.

ثالثا- أهمية المداخلة:

1- تركز هذه المداخلة على البعد القومي لتجربة المؤسسات التعليمية لجمعية العلماء المسلمين في العهد الاستعماري، الذي حاول أن يكرس البعد التغريبي وعمل على طمس ليس مقومات الشخصية الوطنية فقط بل عمل على فصل الجزائر عن عمقها المشرقي.

2- التنبيه إلى الاتصال الذي كان قائما بين التجربة الجزائرية والتجارب المشرقية على مستوى التربية والتعليم.

رابعا-أهداف المداخلة:

1- التعرف على العوامل القومية التي ساهمت في قيام التجربة الجزائرية في قطاع استراتيجي وخطير.

2- التعرف على البعد القومي في تلك التجربة.

3- بيان مجالات التعاون بين المغرب والمشرق من خلال التجربة الجزائرية في التربية والتعليم.

خامسا-المنهج المعتمد:

لقد اعتمد المنهج الوصفي التحليلي الذي يستند إلى المراجع والدراسات التي عالجت موضوع الاستبعاد والاحتواء الاجتماعي.

سادسا- أهمية التعليم كحصن للهوية الوطنية:

لقد اكتشف الاستعمار الغربي أهمية التربية والتعليم وتوجيهها باعتبارها وسيلة فعالة وسلاح قويا لاستعمار العقول والاستيلاء عليها كما يستولي على النفوس والأراضي. وعن هذا يقول أنور الجندي: "كانت أعقد المشاكل التي واجهها العالم الإسلامي هي مشكلة التعليم والثقافة، فقد أحس المسلمون مدى حاجاتهم إلى توسيع مجال التعليم وتجديد مجال الثقافة كعامل هام من عوامل النهضة. وعرف النفوذ الاستعماري هذا المقتل في حياة المسلمين فحاولوا أن يستفيدوا منه إلى أبعد الحدود، وكان الاستعمار حين عاد إلى عالم الإسلام في دوره الجديد قد أعد مخططه على النحو الذي يكفل له تغيير العقيدة الإسلامية والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التعليم" (1983، ص333). معتبرا هذه الحركة القائمة على الغزو الفكري وتغريبه كبرى معاركه وأعظم عوامل تثبيت قواعده، ذلك لأن ثمار التعليم تستمر عبر الأجيال.

وقد نبه الفيلسوف محمد إقبال إلى خطورة دور التعليم في تلاشي الشخصية القومية فقال: "إن التعليم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكونها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثير من أي مادة كيماوية، وهو الذي يستطيع أن يحول جبل شامخا إلى كومة تراب" (محمد الطاهر عزوي(1999، ص32.31).

وفي مقدمة أهداف التعليم الذي تؤسس الدولة المستعمرة مؤسساته أو تشرف على مناهجه وبرامجه بسلطة إدارتها الاستعمارية، تربية أجيال من أبناء المسلمين تدين بالولاء والطاعة للمستعمرين وتنسلخ عن ولائها للإسلام وولائها لأمتها الإسلامية، وتقتبس المفاهيم والعادات الغربية وكل أنواع السلوك التي يأتي بها المستعمرون، وتتقبل مجتمعاتها الأنظمة التي تزينها لها الدوائر الاستعمارية أو تفرضها عليها (عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، 1996، ص30.27.)

سابعا-أهداف التعليم الاستعماري:

إن الهدف الأساس من إقامة المؤسسات التعليمية الاستعمارية في البلدان المستعمرة ليس العمل البنائي بل إن الهدف من ذلك هو تقويض مقومات الشخصية الوطنية والقومية، ويحقق ذلك بما يلي:

1- القضاء على الإسلام في نفوس المسلمين ولا يبقى من الإسلام إلا اسمه.
2- تشويه الإسلام في نظر أبنائه.
3- تفتيت العالم الإسلامي ووحدته التي تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتستغل في ذلك شتى الطرق، ومما يثبت ذلك قول لورنس براون: " إذا إتحاد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطر وأمكن أن يصبحوا أيضا نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم حينئذ بلا وزن ولا تأثير".
4- القضاء على كل ما يمت بصلة للدين الإسلامي خاصة اللغة والتاريخ الإسلامي بهدف إبعاد المسلمين عن القرآن الذي عجزوا عن القضاء عليه.

ثامنا-النظام التعليمي عند جمعية العلماء:

1-عوامل ظهوره:

يمكن الحديث في هذا الإطار عن عوامل ذاتية أو داخلية خاصة بالظروف التي كانت تعيشها الجزائر وعوامل أخرى خارجية مرتبطة بالتحولات الإقليمية.

أما بالنسبة للعوامل الداخلية فيمكن أن تصنف إلى عوامل متعلقة بوضعية الجزائر كبلد مستعمر يعاني من ما كانت تعاني منه بقية البلدان المحتلة من اضطهاد واستغلال، من جهة، ومن جهة أخر يمكن الحديث عن

تميز وضعية الجزائر التي كانت تعاني من استعمار استيطاني شرس سخر المؤسسات التعليمية لتحقيق أهدافه، وذلك باللجوء إلى ما يلي:

أ - التدخل في مناهج التعليم :

لم يكتف الاستعمار الفرنسي بتوجيه الشباب الجزائري توجيها مغرضا عن طريق المدارس والجامعات التي إقامها، فوضع لها منهاجا يحقق أغراضه، كما فعلت بقية الدول الاستعمارية في العالم الإسلامي والتي وراحت تتدخل في مناهج التعليم حتى وضعت للمدارس الوطنية منهجا يقوم على النقاط التالية:

- اعتبار مادة الدين من المواد الثانوية التي لا تؤثر في نجاح الطالب ودرجاتها لا تضاف إلى المجموع العام.

- اعتبار اللغة الإنجليزية والفرنسية هي لغة التدريس لسائر المواد من الابتدائي إلى الجامعة.

- التركيز على إحياء الروح القومية الضيقة لتمزيق الوحدة الإسلامية.

- العناية بالألعاب الرياضية والأنشطة الثقافية كبديل لتدريس الدين وليس كمتمم له.

- تشويه التاريخ الإسلامي، وإدراج تاريخ الغرب النصراني ضمن المناهج الدراسية.

- وضع النظريات الزائفة والمناقضة للدين في العلوم الطبيعية والنفسية وكذا الاجتماعية والاقتصادية (سعد الدين السيد صالح، (د.ت، ص165.).

ان فرنسا لم تكتف بما سبق ذكره بل كان اهتمامها بإدارة التعليم ناشئا عن قناعتها بعجز أسلوب القهر لإخضاع البلاد كما عبر عن ذلك "ماكماهون" سنة 1869م: ((إن البلاد قد تقهقرت ولكنها ما دانت لنا البتة)، فأتبعت في ذلك سياسة أساسها محاربة القرآن، والقضاء على التعليم الإسلامي، ونهج

سياسة الفرنسة والإدماج وإتباع سياسة التجهيل(– محمد القاضي،1998، ص13.)، وقبل إيراد المنهج الدراسي الذي أعتمد في الجزائر نشير إلى أن هدفنا من إيراد هذه النماذج هو ربط الماضي بالحاضر لأن ما تتعرض له المناهج التربوية اليوم ما هو إلا امتداد لثمار غرست في الماضي، وفي هذا الصدد يقول محمد الطاهر وعلي (ولإضفاء طابع المسيحية على البرامج التعليمية، عمد المنصرون إلى إتباع أساليب غير مباشرة في تحقيق هذا المسعى، فهم من جهة يحتاطون إلى إثارة الشكوك حول نواياهم التنصيرية، ومن جهة أخرى يتهربون من مخالفة التشريع المدرسي الفرنسي الذي ينص على الحياد الديني للمدرسة.) ومن هذه الأساليب الغير مباشرة في تطعيم البرامج التعليمية بالمسيحية ما يلي:

- استخدام نصوص مستخرجة من الإنجيل في دروس تقدم للتلاميذ أو فروض يطلب منهم إنجازها يقول "بورجوا" (إن أغلب الدروس التي يقدمونها للتلاميذ مستوحاة من الكتاب المقدس يظهر منها الطابع الديني في كل سطر.)

- تدريس مادة تاريخ الديانة المسيحية للتلاميذ (تاريخها في إفريقيا)، وقد بدأ هذا بأمر من الكاردينال لافيجري الذي أعطى تعليماته لتقديم هذه الدروس للأطفال الجزائريين ابتداء من أواخر 1886م وذلك على شكل حصص تاريخية، وعن هذا يقول "تبكي" (إن لافيجري أوصى مبشريه قائلا يجب أن تحدثوهم عن تاريخ الدين والكنيسة وبشكل تلقائي، وسيعرفون الكثير عن معتقداتنا وديانتنا عندما نعلمهم هذا التاريخ بشكل أفضل مما لو يحفظون دروس الديانة المسيحية عن ظهر قلب).

- قيام المنصر "تولوت" بتكليف من لافيجري بوضع مطبوعة للتربية الدينية باللغة العربية جمع فيها سور من القرآن ونصوص من الإنجيل، تتناول مواضيع مشتركة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية.

- اختتام العمل الدراسي اليومي بتراتيل دينية (.محمد الطاهر وعلي،

د.ت، ص144.143.)

أما برامج التعليم في منطقة القبائل فقد كانت بالفرنسية واللغة الأمازيغية بدل العربية، والهدف من ذلك إبعاد التلاميذ عن اللغة العربية والدين الإسلامي، وخلق نعرات طائفية في الجزائر. كما تم تطبيق مخطط الكاردينال لافيجري لنشر النصرانية في الجزائر على النحو التالي:

-محاربة القرآن واعتبار اللغة العربية لغة فلكلورية أو لهجة محلية.

-إيهام السكان بأنهم من أصل روماني باختلاق الشبه بين أثار جنوب وشمال البحر المتوسط.

-تعليم أبناء الذوات والعلماء وأبناء الخونة اللغة الفرنسية.(محمد الطاهر عزوي، ص78.)

وبهذا يتسنى لهذا الكاردينال ولمن يأتي بعده من المنصرين أن ينشر المسيحية في الجزائر ويضربوا وحدة الشعب ومقومات الشخصية الوطنية.

وعلاوة على هذا الدور الهدام لفرنسا فقد وجدت حليفا لها تمثل في إتباع بعض الطرق الصوفية التي انحرفت عن الخط العام الذي رسمه مؤسسوها الأوائل، فكثرت عندها البدع والضلالات والخرافات، وتقديس القبور والطواف حولها، والنذر لها، والذبح عندها، وغير ذلك من أعمال السلبية. كما أنه كانت لبعض رجالاتها مواقف متخاذلة تجاه الاستعمار، حيث سيطرت هذه الطرق على عقول أتباعها ومريديها، ونشرت بينهم التواكل والكسل، وثبّطت هممهم في الاستعداد للكفاح من أجل طرد المحتل الغاصب، بدعوى أن وجود الاحتلال في الجزائر هو من باب القضاء والقدر، الذي ينبغي التسليم به، والصبر عليه، وأن طاعته هي طاعة لولي الأمر.(مصطفى محمد حميداتو، 1997)

وبهذه الروح المتخاذلة والتفكير المنحرف، كانت بعض الطرق سببًا في إطالة ليل الاستعمار المظلم في البلاد من جهة، وتفرق صفوف الأمة وضلالها في الدين والدنيا من جهة أخرى.

ب- انتشار الجهل والأمية:

لقد أدّت الثورات المتتالية التي خاضها الشعب ضد الاحتلال الفرنسي الغاشم، إلى فقدان الأمة لزهرة علمائها في ميدان الجهاد خاصة بعد هجرة الكثيرً من المستنيرين من حملة الثقافة العربية الإسلامية هاجروا إلى المشرق العربي، وإلى البلاد الإسلامية الأخرى، يتحيّنون الفرص للرجوع إلى الوطن وتطهيره من سيطرة الفرنسيين، كل ذلك ساهم في انتشار الجهل وتفشي الأمية بين أفراد الأمة، مما أثّر سلبًا على الحياة الفكرية في تلك الفترة(مصطفى محمد حميداتو، 1997).

أما بالنسبة للعوامل الخارجية فهي مرتبطة بما يلي:

1-وضعية العالم الإسلامي والعربي، وما يهمنا هنا هو العالم العربي باعتباره كان يعيش ظروفا مشابهة. ففي مصر التي كانت واقعة تحت الحماية البريطانية انتشرت كليات مختلفة منها التي تابعة للمذهب البروتستنتي مثل كلية التجارة بالعطارين بالإسكندرية والجامعة الأمريكية (التي أنشأت من أجل مزاحمة الأزهر) وكلية البنات الأمريكية بشارع رمسيس وأخرى بأسيوط، كما أوجدت كليات ومعاهد تابعة للمذهب الكاثوليكي منها المعهد الشرقي بدير الدومنيكان بالعباسية بالقاهرة، ومعهد دار السلام بمصر القديمة، إلى جانب المعهد الفرنسي بالمنيرة ولهذه الكليات والمعاهد من فروع وفي كل أنحاء مصر (سعد الدين السيد صالح، د.ت، ص75.).

و بلبنان وسوريا أقيمت جامعة القديس يوسف في لبنان وهي جامعة بابوية كاثوليكية، وكلية بروث البروتستنتية، والكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية اليوم).

و في مصر، بعد فشل اللورد كرومر الحاكم الإنجليزي لمصر مع دانلوب المستشار في وزارة المعارف المصرية في تطوير الأزهر وقبوله للمنهج الغربي في التعليم، أنشؤوا التعليم المدني وحاولوا أن يرفعوه فوق التعليم الديني، فتول "دانلوب" وضع مناهج التعليم في مصر، وكان كل همه من وراء كل ذلك نزع عقيدة الشباب المسلم، وله في ذالك مقولة اشتهر بها: (متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة)، ووضع هذا القسيس مخطط للتعليم في مصر يتمثل فيما يلي:

- جعل اللغة الإنجليزية لغة التدريس لسائر العلوم كالرياضيات والتاريخ والجغرافيا، وذلك للتَضييق على اللغة العربية والقضاء عليها.

- جعل الدين مادة ثانوية ليس لها وزن كمادة الرسم والأشغال والرقص البلدي في معهد الباليه.

- حاول تجريد كتب المطالعة واللغة العربية من كل ما له مساس بالدين، حيث ألغى بعض الكتب ككتاب علي مبارك وعبد الله فكري في "طرق الهجاء" لما يحتويه هذا الكتاب من الفضائل الإسلامية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على حب الوطن والتعاون والإصلاح.

وفي مجال دراسة التاريخ أولى دانوب العناية بالتاريخ الغربي، والتوسع في دراسة تاريخ نابليون ولوسون وفريزر وبونابرت وغيرهم من قادة الغرب كما توسع في دراسة تاريخ الثورات الأوروبية في مختلف أطوار التعليم، بينما تم تدريس التاريخ الإسلامي تحت عنوان تاريخ العصور الوسطى بأسلوب سطحي ومخل حتى مع المتخصصين في التاريخ (سعد الدين السيد صالح، ص167-168.)

وقد أشار أحد الباحثين إلى إن المناهج التي تدرس للمسلم في المدارس الإعدادية والثانوية تم تخصيص النصاب الأكبر للحديث عن الحضارة الغربية فنجد أن أوروبا خصصت لها 370 صفحة والثورة الفرنسية 35 صفحة ونابليون 16 صفحة، بينما الحضارة الإسلامية خصص لها

250صفحة والدعوة الإسلامية 23صفحة وعمر بن عبد العزيز صفحة واحدة.

إذا أمعنت النظر في هذه المناهج عن مضمون الحضارة الإسلامية وجدتها تتضمن القول بأن المسلمين أخذوا فكر أرسطو وأفلاطون وأنه مصدر فكرهم الإسلامي وأن المعتزلة والفلاسفة هم الذين أنشئوا الحضارة الإسلامية، وأن هذه الحضارة لم تلبث أن انهزمت عندما سقط المعتزلة وجاء أمثال الغزالي وابن تيمية، كما يقوم هذا المنهج على أساس الدس والخداع، حيث وضعوا في التاريخ الإسلامي الكثير من الأخطاء كالتوسع في المسائل الخلافية وتضخيمها مثل التي جرت بين علي ومعاوية، مع اهتمامهم البالغ بالحركات الانفصالية عن الإسلام كحركة ابن طولون والقرامطة، وغير ذلك من النقاط الساقطة في التاريخ الإسلامي(أنور الجندي، ص125.124). كما قاموا بطمس صور أمجاد المسلمين العظيمة وتجاهل وإهمال التاريخ الاجتماعي والعلمي والحضاري بوجه عام والتركيز على المواد الحيادية التي لا تتضمن تأسيسا ولا شرحا ولا دعما للعقائد والأخلاق والشرائع والنظم الإسلامية حتى تطغى دراسة هذه المواد على المواد الإسلامية فتستهلك الأوقات اللازمة لها وتصرف الطالب عنها نظرا إلى أن المواد الأخرى قد امتصت كل اهتمامه ومعظم طاقات دراسته(أنور الجندي، ص125.124)

أما في مجال دراسة العلوم الطبيعية والكيميائية وضعوا منهجا يقوم على:

- العداء بين العلم والدين، حيث قاموا بحشر نظريات في هذه العلوم ادعوا لها التطور والتي أثبتت عشرات الأبحاث بطلانها إلا أنهم يصرون على تدريسها للطلاب في كل مراحل التعليم بهدف الإسقاط على الدين وتشكيك النشء في عقيدته .

-إهمال جهود العلماء المسلمين في مجال النظريات العلمية ونسبتها لمفكري الغرب النصراني، ومن المألوف لدى هؤلاء المؤرخين للعلوم والفنون والمعرفة ولاسيما أولئك المعنيين بتاريخ الطب أن يتجاهلوا حقيقة الإسلام في

ذلك بقولهم "أنه لم يظهر خلال هذه الفترة أي عمل بناء واعتبارهم مجرد نقلة للتراث اليوناني ومدنيات الأمم القديمة في الحضارة ولم يضيفوا إلى مجهود هذه الأمم شيئا واكتفوا بعملية النقل التي جاءت مشوهة في معظم الأحيان غير أن الحقيقة عكس ذلك فهؤلاء المفكرين من المسلمين لم ينقلوا التراث القديم نقلا أليا بل حاولوا أن يتمثلوه، وبفضل مبادئ القدماء عكفوا على معالجة مشاكلهم الخاصة، فاكتشفوا مبادئ جديدة ومناهج مبتكرة هذه الأخيرة التي نسبت فيما بعد إلى غير المسلمين(المرجع السابق، ص170.).

2- الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلة من المجموعة العربية، من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين. فالأمة الإسلامية بهذا الدين وهذا اللسان وحدة متماسكة الأجزاء، يأبى الله لها أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي الفرقة، ويأبى لها دينها، وهو دين التوحيد، إلا أن تكون موحدة. وعلى الرغم من الحصار الذي فرضته فرنسا على الجزائر لعزلها عن بقية الأقطار الإسلامية، خاصة تلك التي لم تُبْتَل بما ابتليت به من محاولة طمس دينها ولغتها، فإنه مع إطلالة القرن العشرين بدأت الجزائر تعيش حركة فكرية شبه متواصلة مع الأقطار الإسلامية الأخرى، سواء عن طريق الطلبة الذين ابتعثوا للدراسة في جامع الزيتونة والأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى، أو عن طريق الدعوات الإصلاحية التي قامت في البلاد الإسلامية، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

3- عودة الطلبة الذين درسوا في الخارج: ويقصد بهم الطلبة الذين درسوا في جامع الزيتونة، وجامعة القرويين، والأزهر، وفي الحجاز والشام. فقد ساهم هؤلاء المثقفون بعد عودتهم إلى الوطن بجهود عظيمة في النهوض بالحياة الفكرية والدينية، بما أثاروا من همم وأحيوا من حمية، وبنوا من مدارس في مختلف أنحاء الوطن، وبما أصدروا من صحف، معتمدين في ذلك على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فأصلحوا العقائد، وصححوا المفاهيم، ونقّوا الأفكار من رواسب البدع والخرافات التي علقت

بها، وأحيوا الشعلة التي أخمدها الاستعمار في نفوس الأمة.. ويوم اسوداد المآزم وتلاحم الخطوب، أعادوا ذكرى أسلافهم في الصبر والصمود.. ومن هؤلاء الرواد الذين ساهموا في إثراء هذه النهضة الفكرية الإسلامية بالجزائر نذكر:

أ- الشيخ عبد القادر المجاوي [1848-1913م]:

تخرج الشيخ المجاوي من جامعة القرويين بمدينة فاس، ويعتبر من العلماء القلائل الذين كانوا على رأس الحركة الإصلاحية في الجزائر، (فلا تجد واحدًا من هؤلاء (المصلحين) في الربع الأول من هذا القرن إلا وهو من تلامذته).. خرّج أفواجًا كبيرة من المدرسين والأئمة والوعاظ والمترجمين والقضاة، كان من بينهم الشيخ (حمدان الونيسي) أستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس.. وقد ترك الشيخ المجاوي آثارًا علمية كثيرة في اللغة والفلك والعقيدة والتصوف، نذكر منها: كتاب (الدرر النحوية)، و(الفريدة السنيَّة في الأعمال الحبيبية)، و(اللمع في إنكار البدع)، و(نصيحة المريدين)، وغيرها مما يضيق المقام بسردها.

ومن بين رواد النهضة الإسلامية في تلك الفترة أيضًا العلامة:

ب- الشيخ عبد الحليم بن سماية [1866-1933]:

يعتبر الشيخ ابن سماية في مقدمة الأفاضل الذين أمدوا هذه النهضة بآثار فضلهم، ومن أوائل المصلحين الجزائريين الداعين لفكرة الإمام محمد عبده الإصلاحية، ومن رفاق الشيخ المجاوي في التدريس، كما يعدّ من أوسع علماء عصره علمًا وثقافة. (فقد تخرّج على يديه جيل من المثقفين مزدوجي الثقافة، وخلّف مؤلفات كثيرة منها كتاب (فلسفة الإسلام).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن أغلب أعضاء البعثات العلمية التي ذكرنا سابقًا، قد ظهر تأثيرهم على الحياة الفكرية والحركة الإصلاحية بشكل ملحوظ، في العقدين الثالث والرابع من هذا القرن خاصة، مثل: الشيخ عبد

الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ مبارك بن محمد الميلي، وغيرهم.

4- الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي : كان للدعوة التي قادها الأستاذ جمال الدين الأفغاني أثر كبير في نشر الفكر الإصلاحي السلفي في الجزائر، فرغم الحصار الذي ضربه المستعمر لعزلها عن العالم الإسلامي، زار الشيخ محمد عبده -تلميذ الأستاذ جمال الدين- الجزائر عام 1903م، واجتمع بعدد من علمائها، منهم الشيخ محمد بن الخوجة، والشيخ عبد الحليم بن سماية، كما ألقى في الجزائر تفسير سورة العصر. وقد كان لمجلة العروة الوثقى ومجلة المنار، تأثير كبير على المثقفين من أهل الجزائر، الذين اعتبروا دروس العقيدة التي كانت تنشرها (المنار) للإمام محمد عبده، بمثابة حبل الوريد الذي يربطهم بأمتهم.

وقد استمر الاتصال الفكري بين الجزائر وغيرها من البلاد الإسلامية ولم ينقطع، فقد شارك الشيخ عمر بن قدور بقلمه في جريدة (الحضارة) بالآستانة، و(اللواء) و(المؤيد) بمصر سنة 1914م، وقد كانت هذه الجرائد والمجلات تدعو إلى نهضة العرب والمسلمين، وكانت رائجة في بلاد المغرب والجزائر خاصة.

ويعترف الفرنسيون بأن هناك (مجرى سريًا، ولكنه غزير ومتواصل، من الصحف والمجلات الشرقية التي أعانت المغاربة في مجهوداتهم الإصلاحية، وجعلتهم مرتبطين أبدًا بالرأي العام العربي).

-النظام التعليمي البديل:

ففي ظل هذه الحملة الشرسة كان على الجزائريين أن يبحثوا عن البديل أو النموذج الذي لم يكن مجهولا عند رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر وأصحابه، وهو الذي كانت له اتصالات عديدة بالحركة الإصلاحية في المشرق الإسلامي ورجالها، فهو موجود في الشرق الإسلامي والعربي منه اقرب

إلى الجزائر.

إن التأثر بالنظام التعليمي في المشرق يعود إلى أسباب عديدة كما ذكر، وهو تعبير عن اللحمة بين أصحاب الماضي المشترك بكل أبعاده التي جسدتها أهداف الحركة الإصلاحية، ولهذا ليس غريبا أن يستعين الجزائريون بتجارب إخوانهم المشارقة في مناهجهم التعليمية. فهم قد اطلعوا على التجربة المصرية وناقشوا برامجها، في سنة 1937 بنادي الترقي، من حيث مدى اتفاقها مع الروح الجزائرية(رابح تركي، 1981، ص263) لان المناهج المصرية يشوبها التحريف بسبب تدخل الانجليز في صياغتها، مما جعلها تبتعد عن الروح الإسلامية(محمد قطب، 1989، س217).

وإذا كانت البرامج التعليمية قد اتسمت بالتقليد رغم دسامتها، في البداية، فان المؤسسات التعليمية في الجزائر سرعان ما اقتدت بخبرة الجمعية، خاصة بعد عودة البعثات من المشرق، علاوة على تلك التي عادت من دول المغرب الغربي، وكان على رأس هذه المؤسسات الجامع الأخضر بقسنطينة وزاوية عيد الرحمن ايلولي بالقبائل والهامل ببوسعادة...ثم المدارس العصرية للجمعية في وادي ميزاب.

فإضافة إلى الجسر المتين الذي مد منذ قرون خلت بين المسلمين وهو جسر الكتاب والسنة، الأمر الذي لم يفرط فيه الشعب الجزائري حتى في أحلك ليالي التخلف، فقد تشبثت تلك المدارس بلسان الدين الجامع لأنه أساس بقائها حية، فان المناهج التعليمية كادت أن تكون نسخة طبق الأصل لما كان معتمدا في المشرق العربي، ويبدو ذلك جليا في الكتب المتداولة في المدارس الجزائرية. (رابح تركي، 1981، ص268).

خلاصة:

يتضح مما سبق أن التجربة الجزائرية في التعليم إبان الاستعمار الفرنسي وان بدا عليها بأنها حركة وطنية ضيقة فذلك إنما يعود إلى طبيعة الاستعمار الذي واجهته والذي حاول بكل الطرق عزل هذه التجربة عن مثيلاتها في العالم العربي والإسلامي، غير المدقق في الحركة التعليمية الجزائرية التي بدت متطرفة في عزلتها لم تضيع فرصة التواصل مع إخوانها من خلال تجربتها تلك.

المراجع:

1. أنور الجندي(1983)، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، الموسوعة العربية الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

2. أنور الجندي(د.ت)، سموم الاستراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، دار الشهاب، الجزائر.

3. توفيق الحوري(2004)، تخلف الجامعات العربية والإسلامية أفسح المجال لانتشار الجامعات الأمريكية، جريدة العالم الإسلامي، السعودية،ع1847، 06/28.

4. حارث عبد الستار(1997)، من المستفيد من نظرية فرويد؟، جريدة الرائد، الهند، سنة 38، ع16، 16فيفري.

5. داوود سياكا(1988)، الشباب المسلم والتحديات المعاصرة، مجلة المستقبل الإسلامي، ع87.

6. الدمرداش عبد المجيد سرحان(1985)، المناهج المعاصرة، ط5،، مكتبة الفلاح، الكويت.

7. رابح تركي(1981)، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

8. سعد الدين السيد صالح، إحذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، (دراسة لأخطر العقبات التي تعترض مسيرة الإسلام اليوم)، مكتبة الرحاب، الجزائر.

9. سعيد عليوان، التنصير وموقفه من النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر، رسالة تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه (2000م/2001م)، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.

10. صهيب جاسم(2001)، محو الأمية من أجل التنصير، كولالمبور، 05/08/، موقع إسلام أون لاين نات.

11. عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، غزو في الصميم، سلسلة أعداء الإسلام، ج5، ط4، 1996، دار القلم، دمشق/ دار الشامية بيروت، ص30.27.

12. عبد الكريم بكار، مؤتمر الشباب المسلم والتحديات المعاصرة، مجلة المستقبل الإسلامي، ع87، 1978، ص2.

13.محمد الطاهر عزوي(1999)، الغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي، م، دار الهدى، ميلة-الجزائر.

14.محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر (1830م/1904م)، منشورات دحلب، الجزائر.
15.محمد القاضي(1998)، تراثنا العلمي، جريدة العالم الإسلامي، السعودية، ع1579، 21-27سبتمبر، ص13.
16.محمد بن علي(2004)، اغتصاب المنظومة التربوية (تعجيل الفرنسية وتأجيل الجهاد)، جريدة أخبار الأسبوع، الجزائر، ع152، سبتمبر، ص.7
17.محمد عبد الشافي القوصي(1999)، التبشير العالمي ضد الإسلام، جريدة العالم الإسلامي، السعودية، ع1612، ص13.
18.محمد قطب(1989)، واقعنا المعاصر، ط2، مكتبة رحاب، الجزائر.
19.مصطفى عبد اللطيف(1993)، مدارس التنصير في العالم الإسلامي، مجلة الدعوة، السعودية، ع1420، ص.21.19
20.مصطفى محمد حميداتو(1997)عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية-سلسلة كتب الأمة، العدد 57، السنة 17، سلسلة دورية تصدر كل شهرين من مركز البحوث والدراسات-الدوحة، قطر.